

العلم الجديد لفيكو

بقلم : د. أحمد حمدي محمود

له أثر عظيم في تعريف المفكرين خارج أوروبا
بفلسفة فيكو .

على أنه يمكن القول بأن التاريخ قد أثبت
حتميته في صورة أخرى ، عندما رفض ذبوع أية
أفكار لا تتوافق مع روح العصر ، وعندما أرغم
فيكو على المعاناة والكفاح المرير الطويل بسبب
تعارض أفكاره مع الفلسفة الديكارتية السائدة ،
وبسبب سهولة الطعن في ولاء فيكو للكنيسة
الكاثوليكية العظيمة النفوذ في إيطاليا ، التي
تنهت إلى ابتعاد فيكو عن المنهج الكنسي في
كتابة التاريخ ، برغم شدة حرص فيكو على إثبات
تدينه وولائه للكنيسة ورجالها في شتى المناسبات

وظلمه المفكرون عندما قالوا ان فلسفته لم
تنفع الفكر في شيء . فلقد عرفت بعد فوات
الأوان ، أي بعد خمسين سنة من انشائها . وشاءت
الأقدار أن تظهر في هذه الأثناء فلسفات أخرى
اتجهت في نفس الاتجاه الذي اتبعه فيكو ،

المؤرخ الفيلسوف الإيطالي فيكو من أفضل
الأمثلة التي تثبت لاحتمية التاريخ ، وعدم خضوع
أي مفكر خضوعا كاملا لروح عصره . فلقد عاش
في القرن الثامن عشر في عصر التنوير ، ولكن
أفكاره لا تتبع هذا العصر الا في بعض جوانب
واهنة . ولم تعرف أوروبا أكثر أفكاره الا فيما بعد
في بداية القرن التاسع عشر ، بل وربما في نهاية
هذا القرن . ولو أننا جهلنا تاريخ ميلاده لما كان
من المستبعد أن نعتقد في انتمائه إلى القرن الثامن
عشر بالذات .

وكان الثمن الذي دفعه فيكو نتيجة لتقدمه
على روح عصره باهظا . فلم يعرف خارج بلدته
نابلي ، وخارج بعض مدن ايطالية قليلة كالبندقية ،
الا بعد قرن من وفاته . ولم يعرف على نطاق واسع
الا في القرن العشرين بعد أن انجبت إيطاليا
فيلسوفها العظيم كروتشه الذي عني عناية فائقة
بدراسة تراث فيكو ، وألف كتابا عن فلسفته كان

لفيلسوف ومفكر أصيل يفخر به الايطاليون . فهو يحتل في تاريخ فلسفتهم وفي تاريخ الفكر العالمي مكانة لا تقل بأية حال عن مكانة عظماء الفلاسفة المحدثين كديكارت وكانط وهيغل .

ومن كل الروايات التي تحدثت عن فيكو مجتمعة ، نعرف أنه قد ولد في سانتا كيارا من الأحياء القديمة المشهورة في نابلى . واشتهر هذا الحى بضيق أزقته وكثرة مشاحناته في الليل والنهار على السواء ، بسبب كثرة الحوانيت الصغيرة المنتشرة فيه ، والتي يفوق عددها عدد سكان الزقاق الذى كان يعيش فيه فيكو ، والذى أصبح الآن شارعاً يدعى « ماريانو سيمالو » .

وكان أنطونيو فيكو والد الفيلسوف ، يعمل مصنفاً في مكتبة تدعى San Biagio dei Librari وتميز بخموله وطموحه معاً . واستطاع برغم بساطته أن يجمع قليلاً من المال ساعده على فتح مكتبة في إحدى غرف البيت الذى كان يعيش فيه . وتزوج مرتين ، وأنجبت زوجته الثانية ثمانية أطفال ، سادسهم هو جوفانى باتيستا الذى ولد في ٢٣ يونية سنة ١٦٦٨ .

وفخر فيكو في سيرته الذاتية بوالديه ، ويقول انها قد اشتهرا بالاستقامة ، وتميز أبوه بروحه المرحه ، على عكس أمه التى عرفت بروحها الحزينة . وورث فيكو الطابعين معاً . وعرف فيكو فى طفولته بالحيوية وكرهية الخمول . وروى لنا فى الصفحة الأولى من سيرته الذاتية حادثة اعتقد انها كانت ذات أثر هام فى شخصيته ، وهى سقوطه من فوق سلم وهو فى السابعة من

وجاءت خالية من التعقيدات التى تزخر بها فلسفته . وبذلك تكون حتمية التاريخ قد انتصرت مرة أخرى عندما بينت ارتباط شهرة الفيلسوف بذيوع أفكاره فى عصره ، لأن المستقبل حافل بالعجائب . ولا أحد يستطيع الوثوق فى توقف الفكر أو فى عدم اهتداء مفكرين آخرين الى نفس الفكرة التى يفخر المفكر بأصالة تفكيره فيها . ولكن مثل هذا الرأى يتناسى أن أكثر الأفكار التى جاءتنا من الماضى لم تعرف على أكمل وجه فى زمانها . ونحن نضطر الى الرجوع اليها مرارا حتى ان بدا ظاهرياً أننا تجاوزناها ، فلاشئ يضع هباء فى التاريخ أو الفكر . ولا بد من ظهور عصور مماثلة للعصر الرومانيكى فى ولعه بالتنقيب فى الماضى والكشف عما خفى فيه من أعمال المعمرين ، الذين لم يقدر لهم الخلود بسبب اختلاف معتقداتهم عن معتقدات عصورهم ، أو بسبب غموض أفكارهم ، أو بسبب عدم اهتمامهم بالنواحي العملية التى تساعد على تعريف الناس بهم . واجتمعت كل هذه الأسباب فى حالة فيكو ، وحالت دون انصافه فى عصره وفى بلدته نابلى ، كما يتبين من المارارة التى تنضح بها سيرته الذاتية برغم تركزها على أبحاثه الفلسفية ، وبالرغم من أن فيكو قد كتبها بروح فلسفية صرفة ، وكأنه أراد أن يعرفنا ان ماتعرض له من أوصاب كان أمورا عابرة لا يصح الالتفات اليها عند كتابة تاريخ العظماء . ولكن هذه الأحداث قد عرفت بعد ذلك من روايات المحيطين به ، ومن بعض أوراقه المتناثرة التى كتبها قبيل وفاته ، وقام الكونت فيلا روزا بتحقيقها ونشرها فى صفحات قليلة سنة ١٨١٨ . وساعدت هذه الصفحات على رسم صورة نابضة بالحياة

عمره وفقده الوعي خمس ساعات ، واستنزاف الكثير من دمه ، واصابة بعض عظام الجمجمة مما دعا الجراح الذى استدعى لاسعافه الى التنبؤ له اما بالموت ، أو الاصابة بالعتة .. ولكن النبوءتين لم تتحققا ولله الحمد ، وكل ما بقى هو شعور سوادى وقلق ، يقول فيكو انهما من الخصائص التى اشتهر بها العباقر فى كل مكان وزمان.

ولم يلتحق فيكو باحدى المدارس الا بعد ثلاث سنوات من وقوع هذا الحادث ، وأظهر نبوغا مبكرا دفع والده الى المطالبة بمضاعفة الدروس، ولكن المشرفين على هذه المدرسة رفضوا تعديل مناهجهم حتى تتناسب مع عبقرية فيكو . وانتقل بعد ذلك الى احدى المدارس اليسوعية ، ولم يبق فيها طويلا . ثم أتيحت له الفرصة بعد ذلك لاكمال دراسته على نحو أفضل ، عندما أعيد افتتاح اكااديمية « انفورياتى » Infuriati فى نابلى سنة ١٦٩٢ . وفيها عاد الى دراسة الفلسفة مرة أخرى . وتتلذذ على أحد الآباء اليسوعيين الذين عرفوا بتعمقهم للفلسفة المدرسية الوسيطة . ولم يرض فيكو بوجه عام الا عن الدراسات التى اعتمد فيها على نفسه ، فلقد اتيحت له الفرصة لقراءة أهم المراجع التى يشتغل قراءتها فى دكان أبيه . وسنحت له الفرصة بعد ذلك لاشباع هوايته على نحو أفضل عندما اختارته احدى العائلات العريقة المقيمة فى قاتولا (عائلة روقا) لتعليم أبنائها . وهناك أقام زهاء سنوات تسع ، استفاد منها أكبر افادة ، فقرأ للفلاسفة اليونانيين وللشعراء والمؤرخين الرومانيين وللفلاسفة المحدثين . وتعلق بوجه خاص بأربعة مفكرين هم أفلاطون وتاستوس وبيكون وجروتيوس . وأرجع اعجابه بأفلاطون الى اعتباره ممثلا لذروة الفكر المثالى .

بينما استطاع المؤرخ تاستوس أن يبين كيف يلتهم الفكر بالوقائع المشخصة ، وأعجب ببيكون لأنه أول من أدرك ضرورة تنظيم منهج المعرفة وتصنيفها، وان كان قد أخطأ لأنه تناسى فى قواعده دور التاريخ وما يطرأ من تغيرات على أحوال المجتمعات. وربما كان جروتيوس أفضل حالا لأنه كان من أوائل من تنبهوا الى ضرورة اعتماد كل قانون كلى على جانبيين هما الفلسفة والتاريخ .

ولعل أعظم متعة عرفها فيكو فى شبابه هى المشاركة فى النهضة الفكرية المتواضعة (أو 'اليسورجيميتو الفكرى كما أسماها) التى نشطت فى نابلى فى تلك الحقبة ، والتى كانت تستهدف التحرر من ربة الفلسفات الوسيطة ، والتقريب بين الفكر الايطالى والفكر الفرنسى والفكر الانجليزى . وكثيرا ما احتدمت المناقشات فى الأكاديميات والندوات الأدبية التى كانت تعقد فى المكتبات العامة والصيديات ، وفى بيت الثرى المثقف « كارافيتا » بوجه خاص . وكان فيكو يحضر هذه الندوات أثناء الأشهر القليلة التى تمضيها عائلة « روقا » خارج بلدتها قاتولا . وحرص فيكو أشد الحرص على عدم المشاركة فى أى نشاط سياسى أو دينى ، ولعل قلائل هم الذين قد عرفوا تعرض فيكو لتيار عابر من الشك فى الدين فى شبابه ، قد يرجع أغلب الظن الى افتتاحه ببعض النزعات الأبيقورية التى سادت نابلى فى ذلك العهد .

وانتهت اقامته فى قاتولا ، وعاد الى نابلى . وحاول الاشتغال باحدى الوظائف . واعتقد أن الفرصة قد سنحت عندما خلت وظيفة سكرتير المدينة . اذ كان الشرط الأساسى لشغل هذه

الوظيفة هو الامام باللغة اللاتينية . ولكنه اخفق في مقصده . واقتصر على تعليم الدروس الخصوصية، وأخيرا أتاحت له الفرصة سنة ١٦٩٩، فأختير لتدريس البلاغة في جامعة نابلي ، واستمر يشغل هذه الوظيفة زهاء ست وثلاثين سنة . ولم يزد دخله عن المائة دوقات سنويا (حوالى ١٧ جنيا) . وحاول سنة ١٧٢٣ بعد أن تجاوز الخمسين من عمره الحصول على الأستاذية، وقام باعداد بحث علمى كبير ، يساعده على تحقيق ذلك اذ ظن - فى سذاجة - ان العلم من المؤهلات المطلوبة لشغل هذه الوظيفة العلمية ، كما اعتقد أن زملاءه الذين زاملهم قرابة العشرين سنة ، سيؤيدون هذا الترشيح ، ولكن نتيجة المسابقة خيبت ظنه ، اذا اختار المشرفون على هذه المسابقة رجلا لم يعرف عنه أية مشاركة علمية ، وكان مشهورا بالاعتداء على الخادما فحسب .

واضطر فيكو بسبب الضرورة المالية الملحة الى القيام بأحط الأعمال الصغيرة . وفتح مدرسة بمنزله لتعليم النحو للأطفال. ودفعته الفاقة والحاجة الى التعرض لأكبر كارثة يتعرض لها المفكر أو الأديب ، وهى القيام بتأليف كتب تنسب الى الآخرين . فقد عثر المؤرخون على عدة مؤلفات قام فيكو بتأليفها ، ونسبت الى بعض النبلاء. ولعله كسب من كتابته للخطب والأشعار التى كانت تلقى فى المناسبات المختلفة اضعاف ما كسبه من نشاطه العلمى . ولا يصح ارجاع قيامه بمثل هذه الأعمال الكريهة لأى سبب آخر سوى الفقر . فلم تكن له أية مطامع سياسية أو دنيوية ، كما أنه لم يعرف بحب الملق أو المداينة على الاطلاق .

ولم تكن حياته العائلية - فضلا عن ذلك -

سعيدة. فقد تزوج امرأة لا تصلح للقيام بأى شىء، حتى رعاية منزلها . فاضطر فيكو الى تحمل هذه الأعباء وماتت له ابنة بعد مرض طويل ، تكبد بسببه نفقات باهظة . وجنح واحد من أولاده الى الشر ، فاضطر أبوه فى سبيل تقويمه الى الاستعانة بالشرطة ، وطلب ايداعه فى دار من دور الاصلاح ، ولما رأى رجال الشرطة قادمين للقبض على ابنه صاح : « اهرب يا بنى ! » . ولم يكن أبناءه جميعا على هذا الحال . فقد كانت ابنته لويزا شاعرة ومثقة . وشاركه ابنه جينارو فى اهتماماته الفكرية .

هذه الأحداث تعرفنا ان طريق فيكو لم يكن مفروشا بالورود ، ولذا نلمح فى ترجمته الذاتية سخرية من الفلاسفة الذين لم يعرفوا غير راحة البال ، والذين استطاعوا تأليف مذاهبهم الفلسفية أثناء نزواتهم فى الحداثق الغناء . فان أحدا منهم لم ير الأطفال وهم يموتون بعد اصابتهم بمرض عضال ، ولم ير واحد منهم الزوجات وهن يعانين من آلام المخاض . فلم يعرف فيكو الهدوء قط . فكان يفكر ويتفلسف ويناقش أصدقاءه فى مسائل الفكر وسط ضجيج الأطفال وصخب الزقاق الذى يعيش فيه .

والى جانب هذه المتاعب ، كانت صحته عليه على الدوام حتى أسماء أصدقائه فى شبابه Mastro Tisicazzo (أى جلدة على عظمة) . وأصيب فى شيخوخته بقرحة فى حلقه ، وبآلام فى قدميه وفخديه . ولا بد أن تكون كل هذه الآلام المبرحة قد علمته الكفاح، وزودته بروح باسلة . فلقد أدرك فضل هذه المحن فى حثه على الاستغراق فى التأمل ، ومن ثم شكر الله على هذه

دفن فيكو في إحدى الكنائس التي كان كثير
الزيارة لها .

ولقد تميز فيكو بعدة خصال حميدة كالهذوء
في مشاحناته الفكرية ، وكرهية المهارات
والشتائم ، وعدم ميله الى الرد على أية انتقادات
لا تهدف الى استقصاء الحقائق . وكان تواضعه
العلمي وتحرره من أى تعصب ذميم مضرب الأمثال.
ويبدو ذلك في ثنائه على ديكارت برغم شدة
اختلافه معه في الرأي ، كما يبدو في اعترافه
بأخطائه وعدم رضائه على كل ثناء زائف ، ونفوره
من أى تعصب ديني ، وازدرائه للمجاهرة بالشكوك
في الدين . فلقد شك في شبابه في الدين ، ولكنه
اعتبر هذه المسألة شخصية ، ولم يترك لنا أية
اثار دالة عليها .

وتميز فيكو بشاعرية أسلوبه . وكان قادرا على
رسم صور حية من خلال أية تجريدات ميتافيزيقية.
واحتوت بعض تعابير على شاعرية تفوق شاعرية
أى ديوان شعر بأكمله ، كما قال « توماسو » .
وأكبر عيوبه هو سوء تنظيم مادته الفكرية فلم
يستطيع عقله أن يحيط احاطة فلسفية وتاريخية
كاملة بالمادة التي قام بجمعها . وكان يكتب أحيانا
باهمال ، وكأن هناك شيطان يسوقه للكتابة ، ومن
ثم افتقرت بعض كتاباته الى الاتزان ، وتميزت
باضطرابها ، كما تدل استطراداته أحيانا على
ضعف التركيز على موضوع واحد .

وكان واثقا من أهمية كشوفه . وكان يعرف أن
القدر قد خصه برسالة سامية . وأخطأ عندما ظن
أن كتاب العلم الجديد سيحدث دويا هائلا في
نابلي ، وربما خارجها . وخاب ظنه عندما عرف
من أكثر أصدقائه الذين قابلهم أنهم لم يقرأوا

المحن لأنها قد أبعدته عن المجتمع ، وأبعدت عنه
مضايقات الآخرين ، مما ساعده على التأمل
والكتابة . وبانت نتائج كل هذا في حياته الفكرية
وفي بحثه عن الحقيقة . فهو لم يعرف التشاؤم قط ،
وبذل قصارى جهده للوصول الى اليقين . فهو لم
ينشر كتابه « العلم الجديد » الا بعد أن أمضى
خمس عشرة سنة - كما قال - في دراساته
المتواصلة .

واستمر يباشر نشاطه الفكري ، دون مبالة
بالكوارث والمحن . وبعد سنة ١٧٣٦ ، بدأ ابنه
جينارو يساعده في عمله ، وفي يناير سنة ١٧٤٠
عين خلفا له . وفي السنوات الأخيرة ضعفت
ذاكرته ، وفقد كل اهتمام بدراساته وأبحاثه .
ولم يعد يعبأ بمناقشة ابنه أو ابنته في مسائل
الفكر الروماني أو اللاتيني ، كما كانت عاداته
وأخيرا مات في هدوء في ٢٠ يناير سنة ١٧٤٤ .

ويشاء الحظ العاثر أن يلاحق النحس فيكو حتى
بعد مماته . اذ حدث خلاف بين زملائه أساتذة
الجامعة الملكية في نابلي ، وبين جماعة دينية
كان فيكو من أتباعها ، حول بعض مراسم خاصة
بالدفن . وتشبت الطرفان برأيهما . وانتهى الأمر
بانسحاب الجماعة الدينية ولم يستطع أساتذة
الجامعة النهوض بأعباء الدفن وحدهما بغير
الشعائر الدينية التقليدية ، ولذا أعيد جثمانه مرة
أخرى الى المنزل . واضطر ابنه جينارو الى
الاستعانة ببعض القساوسة الآخرين الذين وافقوا
على القيام بشعائر الدفن في اليوم التالي ، بعد
أن دفعت لهم بعض نفقات اضافية ، ولم يحدث
اختلاف بينهم وبين الأساتذة هذه المرة . وبذلك

الكتاب ، أو قرأوه قراءة عابرة ، وبدا عدم براعته في فهم المسائل العملية ، عندما أهدى كتابه لنيوتن . ولا بد أنه قد فوجئ عندما تلقى رسالة من أحد الآباء الدومنيكين مصحوبة بهدية من النييد المعتق وبعض الخبز ، وفيها يرجو الأب الدومنيكي من فيكو قبول هديته المتواضعة ، لأن المسيح ذاته لم يرفض مثل هذه الهدايا من الفلاحين القرويين .

يكفى هذا القدر من الأحداث . وأظنه كافيا لتعريفنا بأن حياة فيكو لم تكن مشرقة ، وبأنه لم يعرف السعادة بالمعنى الذى يعرفه أوساط الناس . ولعل من يتأمل هذه الأحداث لا يقر لوم الفيلسوف على ذلك ، بسبب فشله في فهم مسائل الدنيا ، بل سبرى نفسه مرغما على القاء تبعه ذلك على جهل المجتمعات وسيطرة أدعياء العلم ، ولننتقل بعد ذلك الى الكلام عن الناحية التى عرف فيكو فيها السعادة ، وهى ناحية أبحاثه العلمية وفلسفته . واشتهر فيكو بكتاب واحد هو « العلم الجديد » . وقد يعزى انفراد هذا الكتاب بالشهرة الى رغبة فيكو نفسه ، لأنه ظن أن هذا الكتاب وحده هو الجدير بالخلود . ولكننا عندما نطلع على كتب فيكو الأخرى ، نرى أن أكثرها جدير كذلك بالتقدير ، لأنها تساعد على فهم فلسفته وعلى توضيح جميع الجوانب الغامضة فى كتاب العلم الجديد . والجديد فى كتاب « العلم الجديد » هو الربط بين النظريات الفلسفية وأحداث التاريخ .

ومرت فلسفة فيكو فى جملة أطوار . وكان فى أحد هذه الأطوار من الديكارتيين المتحمسين ، ولعله كان زعيم الديكارتيين فى إيطاليا . ثم تركت فلسفة فيكو بعد ذلك فى طور تال على تقدمذهب

ديكارت الذى جعل الهندسة المثل الأعلى للمعرفة باعتبارها تمثل أفضل تمثيل للمعرفة اليقينية المعتمدة على الأفكار الواضحة المتميزة . فلقد اعتقد ديكارت أن بلوغ هذا اليقين وحده هو الذى يساعد على التحرر من الشك ، ومن ثم زعم أن كل المعارف التى لا يمكن ردها الى الأفكار الواضحة المتميزة ، والتى لا تتقبل الاستنباط الهندسى باطلا . وبذلك بدت كل العلوم المختلفة عن الرياضة كالتاريخ والشعر مجرد رؤى وهمية مضطربة . فاما أن تتحول الى أفكار واضحة متميزة ، أو تنبذ نهائيا باعتبارها لاتتنمى الى المعرفة .

ولم يقتصر فيكو - كما فعل خصوم ديكارت - على نقد مسلمات ديكارت باعتبارها بعيدة عن القياس المنطقى ، ولكنه انتقد اليقين الديكارتى ذاته ، لأن اعتماد أية فكرة عليه لن يحول دون اتصافها بالبطلان ، كما أنه لن يثبت انتماءها الى المعرفة الحقة . وحاول فيكو البحث عن يقين آخر . واهتدى اليه بفضل ايمانه المسيحى . فلقد عرف من المسيحية أن سر معرفة الله بالأشياء هو قيامه بخلقها . واستنبط فيكو من هذه الفكرة الربط بين صنع الشيء ومعرفته *verum ipsum pactam*

فاذا كانت المعرفة تعنى معرفة علة الشيء ، فلا بد أن يكون صاحب المعرفة هو صانعها ، أما الكشف التى كشفها ديكارت فلا يصح القول بتبعيتها للمعرفة الحقة . وبذلك ينتفى القول بأن الفكرة الواضحة المتميزة دليل على حقيقة وجود الأشياء ، ويكون ديكارت قد ضل سواء السبيل عندما أرجع معرفة النفس والله الى هذا المعيار ، ويكون فيكو قد حط من شأن جميع العلوم التى أعلى ديكارت من شأنها كالميتافيزيقا واللاهوت والفيزياء ، ويكون قد

أكد سمو العلوم التي استيعدها ديكرات وأبدى
ازدراء كالتاريخ والشعر والبلاغة .

وصفها بأنها المرحلة الفيلولوجية (فى الفترة
ما بين ١٧٠٨ - ١٧١٢)، وهى الفترة التى أمضاها
فى دراسة تاريخ القانون وتاريخ الدولة ، وقرأ
فيها جروتوس وسلدن وبوفندورف ، حتى
يستطيع الكتابة عن حياة أنطونيو كارافا ، والتى
أمضاها فى دراسة حقوق الانسان ، وفى تعمق
دراسة القانون الرومانى حتى يستطيع شغل كرسى
القانون فى جامعة نابلى ، قام فيكو يبحث أصل
اللغة والدين والدولة والشعر ، وتمخضت هذه
الدراسات عن تصحيح فكرته عن العلوم الانسانية .
فلم يعد يراها أقل يقينا من العلوم الرياضية ، بل
بدت له أشد رسوخا منها . فأساس كل هذه العلوم
هو التاريخ ، أى الوقائع التى صنعها الانسان .
وهذه الوقائع ليست مجرد فروض أو احتمالات .
انها أكثر الوقائع يقينا ، لأنها لا تحتل أى شك من
نوع الشك الديكراتى . فديكرات كان ينظر الى
النار ويتساءل : هل توجد نار حققة الى جانب
فكرته عن النار ، أما فى حالة الأحداث التاريخية،
فلا معنى لهذه الثنائية على الاطلاق . فلا اختلاف
بين فكرتى عن الحادثة التاريخية ، والحادثة
التاريخية ذاتها .

وهكذا سار فيكو فى الاتجاه السقراطى الحق
الذى يدعو الانسان الى معرفة نفسه . على أن
البحث فى التاريخ ، والتحقق من كل واقعة فيه
ليس أمرا سهلا هينا . فلا يكفى فى هذا الشأن
اتباع الثقاة ، كما ظن أغلب المؤرخين ، أو بلوغ
معرفة تقريبية بالواقعة ، أو الظن بأن غاية التاريخ
هى العبرة .

وقد يظن باستحالة مثل هذه المعرفة المطلقة .

فما الذى يدعونا اذن الى الظن بأن قضايا
العلوم الرياضية صحيحة ؟ ان هذا لا يرجع الى
مطابقة قضايا هذه العلوم لوقائع قائمة فى الطبيعة،
أو لأن الرياضة تحتوى على يقين ذاتى. ولكن هذا
يرجع الى أن الانسان هو الذى صنعها ، وهو
الذى رتب نظرياتها ترتيبا عليا . فهو الذى صنع
الخطوط والدوائر والنقاط التى تتألف منها ،
والرياضة هى العلم الأوحد الذى أثبت قدرة
الانسان على التجريد ، واختراع أشياء مختلفة
عن الواقع ، يمكن أن تفيده فى حياته العملية
برغم عدم حقيقتها .

فالحقيقة الرياضية اذن قد جاءت من يأس
الانسان من بلوغ الحقائق بمعناها الحق ، انها
تنتمى الى عالم من صنع الانسان ولا تنتمى الى
العالم الالهى ، ان الانسان قد خلق النقاط
والخطوط والدوائر من عدم . وبذلك صحح فيكو
الاعتقاد الديكراتى . فلم تعد الرياضة قمة العلوم،
ولم تعد تصلح أساسا لمعرفة الفزياء ، لأن وقائع
الفزياء لم يصنعها الانسان ، ومن ثم فانه لن يتمكن
من معرفتها . وثمة طريقة واحدة علينا اتباعها فى
دراسة الفزياء ، وعلينا ان نقنع بها برغم أنها لن
توصلنا الى حقائق يقينية للأسباب التى سبق أن
ذكرناها ، هذه الطريقة هى الطريقة التجريبية
التي تفسر نجاح الأبحاث التى قام بها جاليليو ،
لأنه قد تنبه الى ضرورة الحذر قبل تطبيق قواعد
الرياضة على الفزياء ، على عكس ديكرات الذى
اندفع بعيدا فى هذا السبيل .

وفى مرحلة تالية من مراحل فلسفته ، يصح

فلا رجود لأدلة كافية لدينا تساعدنا على بلوغ مثل هذا اليقين .. ولكن علينا الا نياس ، لأننا اذا احسنا البحث فى أصل الكلمات واللغات سيمكن الاهتداء الى حقائق هامة تفسر لنا أموال المجتمعات القديمة ، وتعرفنا أصل العادات والقوانين . وبذلك يمكننا أن نعرف فى النهاية حقيقة الانسان ، وهكذا اتجه فيكو الى تقدير الفيلولوجى والعلوم الانسانية ، بعد أن كان قد تشكك فى بداية عهده بالفلسفة (١٧٠١) فى قيمة التاريخ وعلم اللغة ، الى حد أنه ردد قول ديكارت المشهور : « أتم يا علماء اللغة ، تفخرون بمعرفتكم كل شيء . فأتم تعرفون أثاث ييوت الرومان وازياءهم وتعرفون كيف كانت روما تعيش ، ولكن هل هناك ما يدعو الى مثل هذا الفخر . انكم لا تعرفون فى الحقيقة أكثر مما عرف أى طاه أو اسكاف عاش فى روما فى ذلك الحين » ، ولكن فيكو بعد عشرة أعوام ، ندم على اعجابه بهذه العبارة وفسرها تفسيراً مختلفاً ، بعد أن عرف قيمة الفيلولوجيا . فلو أن هؤلاء الفلاسفة قد تنبهوا الى قيمتها لتغيرت فلسفتهم أعرق تغيير .

هذه خلاصة لفلسفة فيكو التى ستصادف تطبيقاً لها على دراسة الأحداث التاريخية فى كتاب العلم الجديد ، والتى كانت مختلفة أشد اختلاف عن التيار الفلسفى الذى كان سائداً فى القرن الثامن عشر ، مما حث المؤرخ الفرنسى بول هازار فى كتابه أزمة الضمير الأوروبى

La Crise de la Conscience Européenne
على الاعتقاد « بعدم استبعاد تغير اتجاهات الفكر فى أوربا لو أن الأقدار ساعدت على معرفة أفكار فيكو عند ظهورها . »

ومن الغريب أن تبدو الفكرة السائدة فى فلسفة فيكو غريبة مع أننا كثيرا ما نصادفها فى أقوال العوام ، عندما يقولون بأن معرفة صانع الشيء له أفضل من معرفة من لم يصنعه . وتدعونا مثل هذه الفكرة الى التواضع وعدم ادعاء معرفة الغيب ، وضرورة التفرقة بين علم الله وعلم البشر (وهو نفس الاتجاه الذى دعا اليه كانط بعد ذلك فى فلسفته النقدية) . ولعل هذا المعنى كان معروفا فى القرون الوسطى . فلقد ذكر كروتشه أننا نصادفه عند عدة فلاسفة كدانس سكوت وأوكام . ونصادفه أكثر من ذلك عند فلاسفة عصر النهضة . اذ قال فى نفس المعنى أحدهم بأن الانسان غير قادر على معرفة الله « ولو أمكننى أن أعرفه سيحق لى أن أصبح الها » .

وربما صادفنا فى صورة مضمرة عند مالبرانش الذى قال أن الله وحده هو الذى يعرف أعماله لأنه هو الذى حدد أفعاله من قبل . على أننا لا نستطيع تحديد المصادر التى تأثر بها فيكو تحديداً دقيقاً لأنه لم يذكر لنا صراحة أى شيء عن هذا الموضوع فى ترجمته الذاتية ، الى أن معرفتنا بقراءاته الأولى مازالت ضئيلة للغاية . صحيح أنه قد أبدى اعجاباً متكرراً بافلاطون وتاسيتوس ويكون وجروتوس ولكن فلسفات هؤلاء الفلاسفة والمفكرين لن توضح توضيحاً كاملاً الفكرة التى جاء بها فيكو .

وام يقتصر فيكو على هذه النظرة الفلسفية العامة ، بل كانت له آراء فى شتى النواحي العملية ، فقد حاول الربط بين تأملاته النظرية ونواحي نشاطه العملى . فهو لم يكن راضياً البتة عن نظام التعليم فى عصره . « ولعلنا نذكر أنه

كان وثيق الصلة بالتعليم ، وأنه كان قد فتح فصلا دراسيا في منزله . فانتقد حشو أذهان التلاميذ بالمعلومات المجردة الصورية الخالية من أى مضمون ، مما يجعل العلم لا يعنى أكثر من خيالات غير مرتبطة بالحياة أو الانسان .

ولكنه استثنى من العلوم ، الهندسة ، التى رآها مفيدة للخيال ، وتساعد على تحريك ملكات الخلق فى النشء . وحث فيكو على احداث توازن بين الرياضيات المجردة والعلوم المشخصة ، لأن الطفل لن يحيا بعد انتهاء دراسته فى عالم من الخطوط والدوائر والمثلثات ورموز الجبر ، وكلمات برهان « ومطلوب اثباته » . ففى عالم البشر ، لا وجود لأى خطوط هندسية مستقيمة ، ولا أثر لأى منطق رياضى أو غير رياضى فى تكوينهم العقلى الأصلى .

وأحسن فيكو أيضا بالكارثة التى تهدد الشعر واللغة نتيجة لتقدم العلوم الطبيعية ، الى حد أن الفلاسفة قد شنوا هجوما شنيعا على الشعر وعلى كل ملكات الخيال . فقد ظنوا أن تذوق الشعر سيؤدى الى استغراق الناس فى عالم من الوهم ، والابتعاد عن الحقيقة . وفى القرن الثامن عشر كذلك ، بدأ اهمال تعلم اللغات القديمة ، وتشتت أعظم المكتبات التى كانت تحتوى على أعظم آثار مكتوبة باللغات القديمة كمكتبة الأدب ديبوا فى فرنسا وفاليتا فى نابلى . وبدأ الناس يسخرون من اللغات اللاتينية واليونانية . وحذر فيكو من عواقب كل هذه الأمور ، بعد أن عرف قيمة الفيلولوجيا ، لأنه ربما كان أهم أساس ستعتمد عليه كل الدراسات الانسانية .

ولم ينس فيكو حتى الضحك ، فحاول تفسيره ، وقال انه ينتج عن توقع شىء غير منتظر . وأنه ظاهرة سائدة بين أوساط الناس . فالحيوان لا يعرف الضحك ، كما ان الانسان الكامل لا يعرفه أيضا وبذلك يكون الانسان الميال للضحك كائنا وسطا بين الحيوانات والانسان !

ومن بين نصائح فيكو العملية التى اهتدى اليها نتيجة لأبحاثه الفلسفية ، اعتقاده فى قوة العرف والعادة ، وبأن القانون الوضعى ليس له أية قيمة ، اذا لم يعتمد اعتمادا كاملا على دراسة أخلاق الناس وعاداتهم . ومن يعرف هذه العادات ، لن يتسرع فى اصدار التشريعات ، وسيراعى الفوارق بين الأمم قبل الاقدام على اصدار أى حكم أخلاقى أو اجتماعى . وهذه نتائج قد أصبحنا ننسبها الى مونتسكيو ، ونذكر اسم فيكو عند أى كلام عنها .

الكتاب - العلم الجديد *Scienza nuova*

عنوان الكتاب مستوحى فى أغلب الظن من عنوان « الأورجانون الجديد » لبيكون ، وربما من اسم كتاب « جاليليو »
« Dialoghi delle Nuove Scienze »
الذى قال عنه هوبز انه كان أول من عرفنا فلسفة حركة الكونيات .

وأول صورة لكتاب العلم الجديد كانت عبارة عن دراسة نقدية صدرت فى نهاية سنة ١٧٢٤ ، وانتقد فيها فيكو مذاهب القانون الطبيعى التى وضعها جروتوريوس وسلدن وبوفندورف ، والمذاهب النفعية للرواقين والايقوريين ، ومذاهب هوبز وسبينوزا أو بايل ولوك ، وكاسبون Casaubon وسوميز Saumaise وفوس Voss وبوخارت Bochart وكان العنوان الكامل لهذه الدراسة

مؤلفه « العلم الجديد » . فلم تتجه نيته الى محاكاة الفلاسفة الآخرين وتأليف نسق فلسفى جديد يضاف الى الأنساق الفلسفية الكثيرة فى القرن الثامن عشر ، كما أنه لم ينزع الى كتابة تاريخ عالمى أو جزئى مماثل لكتب التاريخ التى كانت معروفة فى عهده . لقد أراد انشاء علم جديد للطبيعة الانسانية ، يجمع بين الفلسفة والتاريخ ، ويساعد على ايضاح ارتباط الفكر بالزمان فى الحضارة الانسانية . فلا قيمة للاحداث فى ذاتها لو خلت من أى بناء منطقى ، وأى بناء منطقى لا يعتمد على وقائع شخصية لن يزيد عن وهم أو خرافة ، لن تقوى على الوقوف فى وجه أى اعتراضات مستندة الى الواقع . ولقد أدى الانفصال الذى حدث فى الفكر الغربى الى تورطه فى عدة مآزق ووقوعه فى دور .

وكان من واجب المفكرين التنبه الى ما بين الفكر والأحداث من صلة . ولن تتحقق هذه الصلة الا اذا ظهر علم جديد يجمع بين الفكر والزمان ، أو بين الفلسفة والفيلولوجيا (وتعنى عند فيكو البحث التاريخى عن أصول الأشياء ، وليس الكلمات وحدها) .

ومن غير المستطاع استنباط هذا التاريخ الفلسفى من تكوين الطبيعة الانسانية باعتبارها جوهرها سابقا . فان هذه الطبيعة فى صيرورة دائمة ، أو هى عبارة عن أحداث متدفقة فى الزمان ومتفاعلة مع الفكر فى نسيج واحد ، ولا تخضع لأى قانون على . فهى فى حركة دائمة بين إمكانات لا يمكن التنبؤ بها ، أو تقريرها . وحركتها هى التى تخلق هذه المكنات . وستساعدنا دراسة الطبيعة الانسانية على فهم الحضارة الانسانية ، لأن بناء

هو « العلم الجديد فى صورة سابلة » . ورضى الكاردينال كورسينى عن اهداء هذا العمل القيم اليه ، ووعد تمشيا مع العادة المتبعة المشاركة فى نفقات طبع هذا الكتاب . فقام فيكو فى التو بارسال الكتاب للطبع ، ولكن الكاردينال كورسينى تراجع وشعر فيكو نتيجة لذلك بلطمة شديدة ، وحاول بيع خاتم ذهبى كان يملكه ، ولكن هذه المحاولة لم تساعد على طبع الكتاب ، لأن ثمن الخاتم لم يزد عن ربع النفقات المطلوبة لطبع الجزءين الكبيرين . ورأى فيكو أن الحل الوحيد هو العدول عن نشر هذا الكتاب فى صورته المسهبة ، والقيام عوضا عن ذلك بتحويل موضوع الكتاب ، بحيث يبرز أفكاره الأصلية بدلا من الأفكار النقدية التى تضمنها الكتاب فى صورته الأولى . وما يترتب على هذا التغيير هو صغر حجم الكتاب الى أقل من ربع حجمه فى صورته الأولى ، وبذلك ظهر كتاب العلم الجديد فى صورته الأولى *Scienza nuova prima* وان كان الأصح هو تسميته العلم الجديد فى صورته الثانية . ولم يرض فيكو عن كتاب العلم الجديد فى صورته الأولى وقام بتعديل مخططه مرة أخرى ، كما قام بتنقيح كثير من أجزائه ، وأرسله للطبع فى نابلى فى يولية سنة ١٧٣٠ ، فنشر فى سبتمبر من نفس السنة ، وطبع طبعة رديئة مشابهة لطبعة صورته الأولى ، بسبب فقره ، وسوء حالته المالية التى تحدثنا عنها . ولم يرض فيكو عن الكتاب فى صورته الجديدة أيضا . وقام بتنقيحه مرة أخرى ، وظهرت آثار ذلك فى الطبعة التى صدرت بعد وفاته سنة ١٧٤٤ . ويمكننا بعد الرجوع الى عرضنا الموجز لفلسفة فيكو ادراك غايته من كتابة

النفس وبناء الحضارة شيء واحد ، وكل منهما يعكس الآخر . على أن هذه الدراسة لن تمكننا من الاهتداء الى أية قوانين محددة كالتى نصادفها فى علم الطبيعة . فلو أن الاهتداء الى مثل هذه القوانين كان أمرا ميسورا لاتفتت نتيجة لذلك قيمة الزمان . ومن هنا يتصف العلم الذى يتمخض عن مثل هذا البحث بمنظهره الوصفى وليس بمنظهره المياري .

القديمة كروما والعصور الوسطى ، فهو يحتوى على مشروع لم يتم لكتابة تاريخ عالمى للشعوب البدائية من عهد الطوفان ، ويمثل الأصول التى نبعت منها الحضارة المختلفة . فيه وصف للمجتمعات البطولية أو الهمجية التى ظهرت فى اليونان ، وفى روما بوجه خاص ، ودراسة الأديان هذه المجتمعات وعاداتها وقوانينها ونظمها ولغاتها .

وتظهر فلسفة فيكو الروحية بوجه خاص عندما يدرس الشعر البدائي ، وعندما يتحدث عن أصل الشعر الهوميروى وطابعه ، وعندما يبحث - عند كلامه عن تاريخ روما القديم - الصراع بين العوام والأشراف فى أصل الديمقراطية . ويبدو اقتدار الكتاب الى احكام التعميم والبناء ، من تقسيم فصول الكتاب ، فالكتاب الأول خاص بالمبادئ العامة وغاية الكتاب ، ويصح القول بأن هذا الكتاب يمثل الجانب الفلسفى . أما الكتاب الثانى فهو خاص بوصف حياة المجتمعات الهمجية ، ويحىء بعده كتاب ثالث عن هوميروس بوصفه مثالا للشعر الهمجى . وفى الكتاب الرابع تركيز على تاريخ روما . ويتحدث الكتاب الخامس عن فكرة « الرجمى » فى التاريخ ، ويقتصر فيكو فى هذا الكتاب على الكلام عن العصور الوسطى .

والأفضل للقارئ أن يتناسى وجود مثل هذه التقسيمات ، وان يتناسى المصطلحات الغريبة التى وضعها فيكو وكأنه أراد اثبات ابتعاده عن كل الخطوط التى اتبعتها انطلسفات التقليدية التى انتقدها ، وأن يقرأ الكتاب فى شموله قراءة واحدة وأن يعيد تقسيم معلوماته الغزيرة من جديد ، وسيرى فى هذه الحالة أن فيكو قد نجح فى تحقيق

وفى هذا العلم الذى يجمع بين الزمان والفكر: الزمان هو المبدأ الصورى،الذى يمثل بناء المجتمع والحضارة، والذى يمثل تعاقب الأحداث فى الزمان وتنوعها واختلافها . أما الفكر فهو مضمون هذه الأحداث . الذى لايمكن انتزاعه أو تجريده من الأحداث المحيطة به على نحو مشابه لما يحدث فى الرياضة أو كل العلوم التى استطاعت اختراع رموز متحررة من كل مكان وزمان ، وكأنها تمثل حاضرا أبديا ، ولذا بدا لها الماضى بغير قيمة . فأى علم يتحدث عن الانسان لايمكن أن يعرف أو يفهم بغير بحث واستقصاء للماضى .

والعلم الجديد ليس معرفة احتمالية ، أو تابعة للثقات ، انه المعرفة الوحيدة التى لاتستند الى فروض أو مسلمات ، والتى لاتهدف الى تحقيق غايات قبلية مرسومة من قبل . هذه هى الغاية التى أراد فيكو تحقيقها عندما كتب « العلم الجديد » ، ولكن الخطة التى وضعها لهذا الكتاب قد جعلتنا لاندرك فى بعض الأحيان أنه كان يرمى الى ذلك . فالكتاب - كما اعتقد كروتشه - يبدو أحيانا فى صورة فلسفة للروح ، ويبدو فى أحيان أخرى فى صورة كتاب عادى للتاريخ ، أو فى صورة مجموعة من التواريخ المتفرقة لبعض العصور

— برغم استفادته منها — هو شدة اعتمادها على روايات الثقات . ولذا تضمن منهجه نقدا للأخطاء التي طالما وقع فيها المحققون ، أهمها تعصب الدارسين والشعوب عند تقدير طابع الشعوب القديمة . ووضع فيكو مجموعة من المبادئ والأصول التي تذكرنا « بالأوثان » في مذهب ييكون ، وجعلها مثلة لاسباب جمود الفكر وعدم قدرته على ادراك الحقيقة .

ويحذر فيكو من الاسراف في الزهو بالعصور الماضية ، وهو ما يؤدي الى الظن بتشابه عادات الماضي مع الحاضر ، أو القول أحيانا بتفوق الماضي على الحاضر . فلقد أبدى شيشرون مثلاً إعجاباً بالرومان وإنسانيتهم ، لأنهم كانوا يدعون أعداءهم ضيوفاً . ولم يدرك شيشرون أن الحقيقة عكس ذلك ، لأن الكلمة التي ظن أنها تعني الضيافة (hoste) ، تدل كذلك على معنى العداة والغربة .

وأشاد سنيكا بروح الشفقة التي اشتهر بها الأشراف تجاه العبيد . فقد كان الأسـيـاد يدعون Pater familias ، بينما كان هؤلاء الأسياد لا يعرفون الشفقة حتى مع أطفالهم أنفسهم .

وانساق جروتوريوس وراء نفس الوهم ، فأشاد باتصاف الألمان القدامى بالعدالة، وضرب مثلاً لذلك بعض قوانين ظهرت عندهم تبين عدم التسامح في جريمة القتل. إذ كان القاتل يرغم على دفع دريهمات قليلة جزاء له على فعلته !. ولكن هذا الدفاع الهزيل قد أثبت عكس ما دافع عنه جروتوريوس، لأنه بين لنا أن ثمن أرواح هؤلاء العبيد لا يزيد عن دريهمات قليلة .

الغاية التي حددها لنفسه ، وهي بيان اختلاف أى علم يبحث في الطبيعة الانسانية أو طبيعة الحضارات عن صورة العلم التي عرفت في الطبيعة ، كما أنه سيلتمس العذر لفيكو ويدرك أنه كان مرغماً بسبب اتساع أبعاد هذا الموضوع، ولا تناهيه، على اختيار نماذج قليلة من هذا الموضوع الرحيب، هي النماذج التي أمكنه إعادة دراستها ، والتي استطاع الحصول على أدلة وفيرة خاصة بها . وتمشياً مع هذا المنهج ، أرى الاكتفاء في هذا المقال بعرض المسائل الآتية :

١ — منهج البحث التاريخي .

٢ — كيف كتب فيكو التاريخ .

٣ — أصل الشعر والاستاطيتا .

١ — منهج البحث التاريخي

عاش فيكو في عصر لاتاريخي . فهو عصريئومن بالبحث والاستقصاء وضرورة الشك قبل بلوغ اليقين . وكان المفكرون يبلغون اليقين غالباً في العلوم الطبيعية والرياضية . أما في التاريخ فقد اقتصر أغلبهم على الشك ، أو على القول بأن التاريخ معرفة احتمالية أو تقريبية . ومع هذا فإن العالم مدين بالفضل في تقدم أبحاث التاريخ للمحاولات الكبيرة التي بذلت في هذا العهد « بعد عصر الإصلاح الديني بوجه خاص » لإعادة مراجعة الروايات التاريخية القديمة وكتب التاريخ القديمة . ومن الواجب ألا تنسى أيضاً الجهود التي بذلتها مدارس البحث في القانون الطبيعي والتي استفاد منها فيكو كثيراً كما ذكرنا ، وكذلك البحث في الآثار والرحلات الاستكشافية .

وأهم نقد وجهه فيكو الى جميع هذه الأبحاث

يعرفوا قبل اكسنوفان أى شىء عن الفرس . واعتاد المؤرخون الرومان بدء تاريخهم بانشاء روما وكان روما تمثل بدء تاريخ العالم . بينما لم تزد روما عن مدينة مستحدثة فى عالم « لاتينيوم » . واعترف المؤرخ ليقى بعدم الاطمئنان الى أية أحداث فى تاريخ روما تسبق الحرب البونية Punic War كما اعترف بعدم قدرته على ذكر أى شىء عن تاريخ دخول هانيبال لايطاليا ، وهل تم ذلك عن طريق جبل الابنين، أو جبال الألب ، هل هذه الالتقادات ساعدت فيكو على البحث عن سبيل جديد لمعرفة أحداث الماضى معرفة يقينية . فمن الواجب الابتعاد عن روايات الثقافات المزعومين والرجوع الى الأصول الأولى التى قد تساعد على تصحيح هذه الرويات، أو تأكيدها .

وأول هذه المصادر هو البحث فى أصول الكلمات . فيجب أن تدرس اللغة دراسة من نوع جديد . فلا تكفى دراسة اللغات دراسة مقارنة اعتمادا على تشابه أنغام المقاطع المختلفة . ان اللغة قادرة على تعريفنا جملة أشياء عن حياة الشعوب القديمة والعهود التى أنشأت فيها لغاتها الأولى . فيمكننا أن نعرف كيف تصور الانسان البدائى الأشياء الطبيعية المحيطة به وكأنها امتداد لجسمه . فأسمى فوهة أى وعاء بالفم ، وأسمى حافة أى اناء بالشفة . والأمـر بالمثل بالنسبة لكلمات مختلفة مثل ظهر وبطن وجبهة وشریان وساق ، فكلها تدل على معالم طبيعية الى جانب دلالتها على أجزاء من جسم الانسان .

واعتقد فيكو أن اللغة قد مرت فى أطوار ثلاثة: الطور الأول يمثل اللغة فى شكل تعبير أولى يتجسم فى صورة كلمات ذات مقاطع مفردة . ثم تطورت

وحذرنا فيكو بعد ذلك من غرور الشعوب . فال يونانيون والبرابرة والكلدانيون والمصريون جميعا قد ادعوا بأنهم أصحاب فضل خلق الحضارة الانسانية ، والكشف عن أسرار الحياة . فلقد أدت عزلة الشعوب بعضها عن بعض ، وانقطاع صلاتها ، الى توهمها عدم وجود أية حضارة خارج حدودها ، فأى شعب من هذه الشعوب أشبه برجل قد استغرق فى نومه فى حجرة صغيرة، فاندفع بتأثير ذلك الى الظن بأن العالم هو هذا الركن الصغير وحده الذى يحيا فيه .

وتجىء بعد ذلك أوهام العلماء المؤرخين الذين يظنون أن الشعوب التى يتحدثون عنها تشابههم فى تعلقهم بالعلم وفى القدرة على التعلقل والتأمل ، فالعقل « الأكاديمى » يتوهم أن العقول التى يتحدث عنها مماثلة له فى نظرته الأكاديمية . بينما أثبت التاريخ أن أكثر الناس فاعلية كانوا بعيدين عن التأمل والقدرة على البحث ، فالقيم التى يعتنقها أى مؤرخ شىء ، والقيم التى كانت سائدة فى أية عصور ماضية شىء آخر . ومن دلائل زيف هذه النظرة ، اعتقاد المؤرخين عندما يكتشفون وجود أوجه شبه بين أية فكرتين سائدتين عند أى شعبين وجوب نقل أحد هذين الشعبين الفكرة عن الشعب الآخر . ومعنى هذا هو انكار قدرة الروح الانسانية على الاختراع ، دون نقل من مصدر آخر .

وآخر الأوهام التى يخضع لها المؤرخون ، اعتقادهم أن القدامى كانوا أفضل علما من أبناء الحاضر ، فى معرفتهم بالعصور التى عاشوا فيها . واستشهد فيكو بما ذكره ثوكوديسيدوس عن جهل المؤرخين اليونانيين بماضيهم ، وبأن اليونانيين لم

اللغة وتحولت الى صورة تعابير مجازية تكاد تشبه الغناء ، وبعد ذلك ظهرت لغة الفكر التى تصلح للمعاني المجردة .

أما المصدر الثانى الذى أوصى فيكو باللجوء اليه فهو تفسير الأساطير ، لأننا اذا أحسناتفسيرها سيكون فى وسعنا معرفة دلالتها الاجتماعية ، لأن الشعوب الأولى كانت مستغرقة فى مشكلاتها الخاصة ، ولم تتوفر لها أية قدرة على التأمل الميتافيزيقى الذى يتجاوز مصالحها الشخصية . واكتشف فيكو نتيجة لذلك وجود أساطير دالقة على الصراع الاجتماعى ، والحروب ، كما اكتشف حقيقة بالغة الأهمية وهى تحوير معانى الأساطير بحيث تتناسب مع روح العصور المختلفة . ففى عهود الانحلال مثلا تعرضت معانى الأساطير للمسح والتشويه بقصد تبرير الفساد الذى يسود مثل هذه العصور ، كالقول مثلا بأن جوبتير كان غارقا لأذنيه فى الشهوات ، وكالأساطير التى تحدثت عن مطاردات أبولون للعذارى ، أو سقطات الالهة ديانا التى اشتهرت بعفتها ، وتورطها فى الاثم مع اتنديمون .

أما المصدر الثالث الذى أوصى فيكو باتباعه فهو الرجوع الى مذكرات الشعراء والمؤرخين . فلو أننا أحسننا تفسير مثل هذه الآثار ، سيكون فى وسعنا الكشف عن عدة أسرار خفية متضمنة فى مثل هذه الآثار الهامة ، كلغة الالهة عند هوميروس ، أو عصور التاريخ الثلاثة عند المصريين القدماء . والثلاثين ألف اسم للالهة التى تكلم عنها فارو .

واعترف فيكو كذلك بقيمة الآثار ، وان كان لم يرجع اليها الا فيما ندر . وذكر أن أكثرها قيمة هى النقود والميداليات . ومن الأمثلة التى ذكرها

لنا ، واعتمد فيها على بعض الصور القديمة المنقوشة ، فى الآثار ، اكتشافه أن العصور الأولى قد تميزت بأكل الشواء ، أى اللحوم التى لاتعتمد على أى شىء خلاف النار . ثم جاءت بعد ذلك عصور أخرى عرفت الطهو ، وعرفت كيفية سلق الطعام وإضافة مواد أخرى الى اللحوم .

وانتفع فيكو انتفاعا كبيرا باكمال الأدلة الناقصة ، وتصحيح الأدلة غير الصحيحة . فمن المعلومات المعروفة عن العصر البطولى عند الرومان يمكن فهم العصور الأسطورية اليونانية ، أو اكتشاف ماضى الشعوب الأخرى . فلقد كانت أهم سمة للالهة عند هذه الشعوب هى غرابة أفعالها واختلافها عن أفعال باقى البشر . ومما يدلنا على هذه الفكرة فرار الهنود الحمر بمجرد استماعهم الى بعض طلقات من بنادق الغزاة . فلقد ظنوا على الفور أنهم الهة .

كيف كتب فيكو التاريخ

لايصح وصف التاريخ الذى كتبه فيكو بأنه فلسفة للتاريخ ، اذا قصد بهذا المعنى التاريخ العالمى ، كالذى صادفناه بعد ذلك عند بعض الفلاسفة المؤرخين كهيجل ولامبرخت وشبينجلر وهو التاريخ الذى يركز على فكرة بالذات « غالبا ماتكون قبلية مرتبطة بميتافيزيقا الفيلسوف » ، ولا يرجع الى الأحداث الضرورية الا بقصد تدعيم هذه الفكرة .

ولعل أهم مشكلة صادفت فيكو عند كتابة « العلم الجديد » هى مشكلة التوفيق بين التاريخ الوثنى والتاريخ الدينى . وكان فيكو يعلم كل العلم مدى سيطرة الكنيسة الايطالية على جميع العلوم

الانسانية ، وحرصها على مراجعة كل ما كتب فى هذا الشأن .

ولعل تدخل الكنيسة فى كل صغيرة وكبيرة من مسائل الفكر لم يخل من بعض آثار خيرة . اذ كان من العوامل التى ساعدت على بقاء كتاب العلم الجديد . فقد كان رجال الكنيسة أحرص من جميع رجال الفكر فى ايطاليا فى ذلك العهد على دراسة هذا الكتاب والتمعن فيما جاء به) .

ولقد حرص فيكو على الاعتراف بالتاريخ كما جاء فى الكتاب المقدس ، كما حرص على التوفيق بين أحداث هذا التاريخ وأحداث التاريخ الوثنى . وربما أمكننا ارجاع هذا الحرص الى ايمان فيكو العميق . فقد كان ، كما ذكرنا ، من أعضاء احدى الجمعيات الدينية . ولعل فيكو ، من جهة أخرى ، قد خشى بأس رجال الكنيسة ، فلا بد أنه لم ينس مصير جاليليو وبرونو (وان كانت محاكم التفتيش قد اختفت فى القرن الثامن عشر من ايطاليا) وعلى العموم لم ينجح فيكو فى ارضاء جميع رجال الدين كما هى العادة ، فثارت فى وجهه عدة حملات ، انصب أكثرها على تجاهل المسيحية عند الكلام عن العصور الوسطى ، وعلى الدور الذى خصصه فيكو للعناية الالهية فى التاريخ . فقل ان فيكو قد تناقض مع نفسه ، لأننا لو سلمنا بأن الانسان هو صانع التاريخ ، لن يكون هناك أى مبرر لوجود مثل هذه العناية الالهية ؟

وظهرت تبريرات فلسفية مختلفة فيما بعد لذلك . فقل أن العناية الالهية لا تتعارض مع حرية الفرد فى صنع تاريخه لأنها تمثل الغاية التى يسير اليها التاريخ ، كما تمثل شيئاً أسمى يتجه اليه الانسان كلما أحس بوطأة الطبيعة وقسوتها . ولو

خلا التاريخ من أثر العناية الالهية ، لما انشغل الانسان بشيء آخر غير عشقه لذاته . فالعناية الالهية وحدها هى التى ساقط الانسان الى خلق نظم العائلة والمجتمع والدولة ، وهى التى استطاعت أن تحول أهواء الناس ومطامعهم وجشعهم الى عواطف نبيلة ، تمثلت فى الشجاعة والاخاء وروح الجماعة . ولولا هذه العناية الالهية لعاش الانسان حياة حسية محضة ، وما سمعنا عن أى تقدم حق . فالعناية الالهية هى التى توجه الكائن المتناهى (الانسان) الى غايات لا متناهية .

على أن المفكرين الآخرين لم يقبلوا مثل هذا التفسير ، ورأوا أن فكرة العناية الالهية أيا كان سببها - تمثل ناحية نقص عند فيكو . فما دام التاريخ خاضعا لتوجيه عقليين « العقل الالهى والعقل الانسانى » ، وما دما غير قادرين على التيقن من أكثر أفعال العقل الفردى وحده ، لذا سيتسم أى تفسير لنا بالنقص على الدوام ، وهذا يؤدى الى خلل فى تطبيق المنهج الذى يفخر به فيكو ، لأنه يعنى وجود قوة متعالية مفارقة توجه التاريخ ، كما اعتقد كثيرون من المفكرين الترانسندتاليين ، الذين آمنوا بوجود قوة خارجية مفارقة توجه الأحداث . وقد يدافع البعض عن هذه الفكرة دفاعا قد لا يرضى عنه فيكو فيقولون ان « اقحام » العناية الالهية قد قصد به القول بعدم اتباع التاريخ للمصادفة ، وبأن الأحداث فى مجموعها ليست متضاربة أو خاضعة للقضاء والقدر ففكرة العناية الالهية هى التى تحثنا على البحث عن جانب المعقولة فى الأحداث ، وهى كثيرة الشبه بفكرة « مكر العقل » التى صادفناها بعد ذلك عند هيجل .

الى أصوات الرعد وغضب الطبيعة ، مما أدى الى تنبيه الانسان الى وجود قوة تفوقه ، عليه أن يراعيها ومن هنا بدأ الوعي الدينى عند الناس .

وبدأ هذا الوعي فى أول صورة فى صورة خضوع لالهة مختلفين يرمزون الى هذه القوة العاتية. وأسمى فيكو هذا العهد بعصر الالهة. وفيه بدأ انكماش المردة بتأثير دخول العنصر الروحي فى حياتهم ، حتى أصبحوا فى الحجم العادى المألوف .. وهكذا حاول فيكو انتوفيق بين التاريخ الدينى كما ظهر فى الكتب المقدسة والتاريخ الوثنى .

(واضطر فيكو فى سبيل ارضاء رجال الدين الى الاعتراف بحدوث جملة أحداث لم يستطع التحقق منها تاريخيا تمشيا مع منهجه) . وأدى خوف الانسان من هذا الرعد وغيره من قوى الطبيعة الى اللجوء الى الكهوف . وفيها عرف الزواج كملاقة مقدسة ينبغى احاطتها بكل مظاهر الوقار . وعرف الانسان معنى العفة والشرف والغيرة ، وبذلك بدأت الحياة العائلية . كما عرف فى ذلك العهد الزراعة والحصاد والملكية ودفن الموتى . وأحاط الانسان كل مظاهر حياته الجديدة بالطقوس الدينية وكان رب العائلة يقوم بدور الملك والكاهن ، فهو المسئول عن استرضاء الالهة ومراقبة تنفيذ تعاليمها وهو المرجع الوحيد فى مسائل الخير والشر ، يحسن الى الخير ويعاقب المسىء .

وعندما كان الانسان يحيا فى عصر الالهة ، كانت هناك فوارق ، فلم يعرف الانسان المساواة الخيالية التى تحدث عنها كثيرا المفكرون الحالمون . فقد كانت هناك فوارق بين أولئك الذين عرفوا نظام العائلة ، وأولئك المشردين الذين كانوا يعيشون فى حالة الفوضى الأولى التى سبقت ظهور العائلة.

وعلى العموم ستظل فكرة العناية الالهية عند فيكو مثار خلاف كبير. فهى قد أدت الى ابتعاده عن منهجه ورجوعه الى الثقافات عند كتابة التاريخ. اذ جعل بداية العالم هى نفس البداية التى جاءت فى الكتاب المقدس ، وجعل ظهور أول العناصر الانسانية فى أعقاب الطوفان ، أو فى سنة ١٦٥٦ من بدء الخليقة على وجه التحديد ، عندما انفصل أبناء نوح « سام وحام ويافت » وعاشوا فى حالة بداءة ووحشية قد أدت الى نمو أجسامهم الى صورة غير مألوفة هى صورة المردة التى جاء ذكرها فى الكتب المقدسة . ونبذت هذه السلالات دين نوح ولم تتقيد بأحكام أخلاقياته ، وبدأت تهيم على وجوهها فى سائر الأنحاء حتى استقرت سلالة حام فى جنوب آسيا ومصر وبعض بقاع من افريقيا واتجهت سلالة يافت فى شمال آسيا أو اسقوثيا ومنها الى أوروبا ، أما أبناء سام فقد عاشوا فى وسط آسيا .

وكان الصراع مريرا بين هذه السلالات الأولى وبين الوحوش التى كانت تهيم على وجوهها ، مثل هذه السلالات . وفى هذه الحياة الوحشية كان الرجال يطاردون النساء بغير هوادة ، فلم يعرف الانسان فى هذه الحقبة أى استقرار أو مكان يأوى اليه ولا بد أن يكون هذا هو سبب قوة شكيتمهم وازدياد طولهم وضخامة عظامهم مما جعلهم يبدون فى صورة مردة . وقد عرفنا هذا الوصف عند المؤرخ الرومانى تاسيتوس عند كلامه عن الجرمان الأوائل . وما زالت لدينا عظام وجماجم ذات أحجام غير مألوفة ، كما أننا نصادف فى تاريخ اليونان دلائل مؤيدة لوجود هؤلاء المردة .

ويرجع فيكو التحول العظيم الذى أدى الى حدوث تغير كلى فى مظهر الانسان الأول وخلقه ،

يشرفون على الطقوس المختلفة كراسم الزواج والدفن .

على أنه كان من المتوقع أن يشعر العوام بقوتهم ، وأن يطالبوا بحقوق مختلفة كحق الزواج والبنوة والوراثة والمشاركة فى الوظائف العامة ، كما كان من المحتم رضوخ الاشراف لتأثير العوام ، وتنازلهم عن بعض حقوقهم اليهم . وبذلك تحولت الدول البطولية الى جمهوريات ديمقراطية ، أو جمهوريات من الأحرار ، وظهر عصر ثالث ، فى التطور الاجتماعى التاريخى هو عصر البشر ، كما أسماه فيكو .

وبحدوث هذا التغير ، تغيرت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وتغير شكل الحكومة ولا يرجع هذا الى تأثير المفكرين ، كما يقال عادة .

على أن عصر البشر قد تعرض لهذه هو الآخر . إذ أدت المساواة الى خلق روح من التهاون والتواكل . وحلت الفلسفة محل الدين ، وتزعزعت سلطة الحكام ، واختفى نفوذهم المطلق الذى تمتعوا به فى العصرين الأولين . وتشتت الناس شيعا ، وحلت المصالح الفردية محل المصلحة العامة . وفى البداية كان الناس يقدرون عراقة الأصل واللياقة للحكم . اذ كان الحكم يتطلب شروطا خاصة من النشاط والكفاءة وحسن الندير . وسرعان ما اختفت هذه الشروط بمضى الزمن ، وأصبح الجميع يتمتعون بحقوق سياسية متساوية . واختلط الحابل بالنابل وانتقل النفوذ الى بعض الحثالات الذين لا يستمعون بأية مميزات أو حكمة . وشاع استغلال الفرد وتسخير المصالح العامة لخدمة مصالح الأفراد . وأدت هذه الحالة فى أوربا الى تحول المسيحية الى صورة من صور أديان الرعب الأولى التى كانت

كما كانت هناك لا مساواة داخل العائلة ذاتها ، أو بين أية عائلة وأخرى . وسرعان ما اندفع المشردون الذين تميزوا بجراتهم وجسارتهم وهاجموا العائلات الآمنة المطمئنة ونهبوا محاصيلها أو أحرقوها ، كما اضطهدوا الضعفاء ، أو كل من لا حول له ولا قوة . وازداد استغلال الناس بعضهم لبعض ، فظهرت عناصر مستغلة وعناصر مستغلة . وظهرت الى جانب فروق الجنس فروق أخرى خاصة بالدم والطبيعة ، وبدأت المصالح الخاصة فى الظهور وعرف أرباب العائلات أن هناك مصلحة واحدة تجمع بينهم أهم بكثير من روابط الدم ، أو من الروابط التى تربطهم بعيدهم . وبذلك ظهرت أحلاف بين أبناء هذه الطبقة التى أصبحت تدعى بالاشراف وبذلك بدأ ثانى العصور ، وأسماه فيكو بالعصر البطولى ، وقد انقسمت المجتمعات الى طبقتين أساسيتين هما طبقة الاشراف أو الأسياد وطبقة العبيد أو العوام . ولم تكن الدولة البطولية مشابهة للملكيات الدستورية التى عرفت بعد ذلك لأن الملك كان زعيما لطبقة الاشراف فحسب . ولا يصح وصف الدولة البطولية بالديمقراطية أيضا . فلم تكن هناك فى ذلك العهد أى حقوق لغير الاشراف . فهو نظام أقرب الى الارستقراطية الاقطاعية .

وأصبحت أهم مشكلات هذا المجتمع البطولى النزاع بين الأشراف والعوام : العوام يرغبون انهاء سيطرة الأشراف والقضاء عليهم . والأشراف من جهة أخرى شديدو الحرص على المحافظة على جاههم ونفوذهم بفضل جيوشهم وأسلحتهم واحتكارهم للنفوذ ومعرفة القانون ، وكان كل اتصال بالالهة لا يتحقق الا عن طريقهم ، فهم وحدهم الذين

شائعة في عصر الآلهة . ويصح القول بأن العصور الوسطى في أواخر عهدها قد عادت الى النظم الاقطاعية التي عرفت في العصر البطولي الأول ، كما يصح وصف القرن السابع عشر ، وما عرف عنه من افتتان بالمنطق والعقل عودة الى عصر البشر .

ولم يقتصر الاختلاف بين هذه العصور على اختلاف البنية وعلى المظاهر الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، ولكنه بدا في اللغة وفي صورة القوانين أيضا . ففي البدء ، وفي عصر الآلهة الذي تركزت فيه السلطة في يد أرباب العائلات ، كانت اللغة خرساء تعتمد على اشارات طبيعية تحاكي الموضوعات والمعاني التي تدل عليها . وشاعت في العصر البطولي اللغة الشاعرية المجازية ، ثم جاءت بعد ذلك لغة انسانية اعتمدت على ألفاظ متفق عليها ، ذات طابع محدد مجرد ، لها فائدة في المعاملات بأنواعها كافة .

وبالنسبة للشرائع السائدة ، كانت الشريعة الأولى تنسب للآلهة ، وتمتع الحكماء - وكانوا من الشعراء - بنفوذ كبير بسبب اضطلاعهم بتفسير أسرار العرافات . ثم جاءت بعد ذلك الشرائع البطولية ، وكلها كانت شفوية ذات طابع مطلق قاطع . ثم سادت القوانين بعد ذلك فكرة المساواة الطبيعية ، ولم تعرف هذه الفكرة الا بعد انتصار العوام على الأشراف ، وبعد أن أدرك الجميع أن من حقهم المشاركة في وضع القوانين وامكان تعديلها حتى تناسب البشر .

٣ - أصل الشعر والاستاطيقا

وعندما خاض في أعماق العصور البدائية السحيقة ، تلك العصور البعيدة الاختلاف عن

العصور المتحضرة ، استطاع أن يدرك سيكلوجية البدائيين ، وأن يمثل المشاعر التي أحسوا بها . فاكشف مدى اختلافهم عن الروايات التي تروى في كتب التاريخ المثالية ، التي لم تعتمد على أى بحث تاريخي صحيح فطلنت أن الطبيعة البشرية ثابتة لاتعرض لأى تغير ، وهو ما يرجع أيضا الى عدم القدرة على النفاذ في عقول البدائيين التي كانت أقرب الى الفطرة ، والتي لم تعرف أى تجريد أو معاني مجردة ، لأن كل ما كانت تعرفه هو مشاعرها وانفعالاتها .

على أن الفلسفات القديمة التي اعتمدت على التأمل وحده قد وقعت في نفس هذا الخطأ بسبب جهلها باللغات الأولى التي تحدث بها الانسان . ويمكننا ملاحظة ذلك بوجه خاص في محاوره اقرطيلوس لأفلاطون التي تركزت حول الكشف عن أصل اللغة . وتكرر هذا الخطأ أيضا عند جروتوس وسلدن وبوفندورف ، عندما تحدثوا عن الحقوق الطبيعية . فلقد ظنوا أن الطبيعة الانسانية في صميمها متحضرة بالمعنى المفهوم الآن . هؤلاء المفكرون قد اتبعوا نظرة عصرهم التي ساد فيها العقل على الغرائز بنير منازع ، ونسوا اختلاف العصور الأولى ، التي لم تعرف أية ملكة أخرى غير الخيال ، واكتشف فيكون بفضل نظريته التاريخية أن الانسان البدائي الذي كان خاضعا خضوعا مطلقا لخياله ، كان شاعرا ، وكان تفكيره عبارة عن صور شاعرية خيالية . واعتقد فيكون أن هذا الكشف هو مفتاح كتابه العلم الجديد . ويرى كروتشه أن القول بأن الانسان البدائي كان شاعرا وبأنه قد عرف الشعر قبل معرفته للنثر يدفعنا الى الاعتقاد بأن فيكون هو مكتشف «الاستاطيقا» وان كان لم يذكر في فلسفته هذه الكلمة صراحة،

للهشة هو الذى جعل كل شئ يبدو فى نظرهم عجيبا .

مثلا فعل باومجارتن . وبفضل تصور فيكو الجديد للخيال استطاع أن يكتشف الطبيعة الحقة للشعر . وبمعنى أصح ، فانه اكتشف علم الاستاطيقا قبل باومجارتن بعشر سنوات .

فبعد أن كان الشعر يبدو فى نظر أفلاطون شيئا قد نبغ من أحط مراتب الروح ، رفعه فيكو وجعله يمثل أساس الروح ، كما يمثل عصرا فى تاريخ الانسان .

فالناس فى نظره يشعرون فى البداية دون دراية ثم يصبحون بعد ذلك على وعى بأفعالهم . ومن هذا يتضح أن عصر الشعر سابق لعصر العقل . ولذا فمن الخطأ الأعم بأن الشعراء الأوائل كانوا فلاسفة ، أو أن الشعر نوع ردىء من الفلسفة . ان الشعر والفلسفة يمثلان ملكتين مختلفتين تمام الاختلاف هما الخيال والعقل . والتفوق فى أية ملكة من هاتين الملكتين يكون غالبا على حساب الملكة الأخرى . ومجال الشعر هو القضايا الفردية المشخصة ، أما الفلسفة فمجالها هو الكليات والتصورات العقلية المجردة . فالشعر يمثل حواس الانسان ، أما الفلسفة فتمثل عقله . وكلما ازداد الخيال الذى يعتمد عليه الشعر ضعف ملكة الحكم المنطقى .

ان الشعراء بالمعنى الصحيح للكلمة لا يولدون فى عصور التأمل ، ولكنهم يولدون فى عصور الخيال التى تدعى عادة بالعصور الهمجية . فأول حكم انسانية كانت شاعرية ، ولم تكن مجردة . فالظاهر أن البدائيين بسبب عدم اعتمادهم على العقل كانوا مرهفى الحس ، أو أصحاب مخيلات قوية الى أبعد حد . فكانت ميثاقهم هى أشعارهم . فهم لم يعرفوا العلى ، أو الانتقال من العلة الى المعلول . فلعل جهلهم أو سهولة تعرضهم

من هذا يتضح أن أفضل نماذج للشعراء قد ظهرت فى العصور البدائية الأولى أو « عصور الشعر » . فعاش هوميروس فى العصر الهمجى القديم ، كما عاش دانتى فى أواخر القرون الوسطى التى اعتبرها فيكو ممثلة لرجعة العصر البدائى القديم . وما يتضمنه اكتشاف فيكو عظيم القيمة لأنه يدعونا الى عدم البحث عن أية فلسفة كامنة فى الشعر ، كما أنه يعنى سبق الشعر للنثر ، مثلما يقال بسبق الغناء للكلام ، أو سبق الرقص للمشى ، فعلىنا إذن ألا تتبع أفلاطون فى زعمه بتمتع هوميروس بكل أنواع الحكمة . فان من يقرأ تشبيهاته أو استعاراته ينزعج للروح الوحشية التى اتصفت بها أبطاله ، والتى لا يمكن القول بأنها قد صادفت أى تهذيب أو صقل بتأثير الفلسفة .

فهل يعنى هذا تعذر كتابة الشعر فى غير عصور الشعور ، أو العصور الهمجية الأولى . ان ما يقصده فيكو هو أن الصور الشعرية بمعنى الكلمة هى التى ظهرت فى مثل هذه العصور . أما الصور الأخرى التى ظهرت فيما يصح وصفه بالعصور العقلية ، فانها كانت مشوبة بمسحة عقلية ، أضعفت أحيانا من شاعريتها . فالشاعر الذى يحيا فى مجتمع متحضر ينبغى أن يدرب خياله ، ويعده عن التأثير بالمنطق ، وبمظاهر الحضارة حتى يستطيع إنتاج شعر حق ، يمثل أفضل تمثيل انطلاق الخيال دون تأثر بأية معوقات حضارية أو عقلية .

هذه الفكرة قد صححت الأوهام التى سادت طويلا ، لأنها أثبتت قيمة الخيال وقيمة الشعر

فى حياة الانسان . فلم يعد الشعر ترفاً يمكن الاستغناء عنه ، ولم يعد مجرد وسيلة تابعة للأخلاق انه الأساسى الضرورى الذى يسبق كل صورة أخرى من صور الفكر .

والقول بأن أول لغة نطقها الانسان كانت شعرا يعنى أن الشعر واللغة قد نهما من أصل واحد . وبذلك تكون دراسة أصل الشعر مماثلة لدراسة أصل اللغة . وهكذا استطاع فيكو أن يصحح الفكرة الفيلولوجية العقلية السائدة التى ظنت أن اللغة قد ظهرت اعتماداً على شىء شبيه بالعقد الاجتماعى . ان اللغة الأولى لم تكن تصورات منطقية . انها لم ترد فى أغلب الظن عن ايماءات خرساء ، أو عن أصوات قد عبرت عن انفعالات الانسان الداخلية ، أو الانفعالات التى يشعر بها عند مواجهة الطبيعة . ولا بد أن يكون الانسان قد اكتشف فى محاولات التعبير الأولى التشابه بين جسمه وبين الطبيعة ، فاختار كلمات واحدة للدلالة عن أجزاء جسمه وأجزاء الطبيعة . ومن هنا كانت اللغة الأولى مجازية فى طابعها . فقد استخدمت مثلاً كلمة رأس للتعبير عن القمم ، كما وصف بها أرباب العائلات . وكلمة فم كانت تعنى أية فتحة من الفتحات . وتشترك أكثر هذه اللغات الأولى فى مثل هذه المجازات . كالقول بأن السماء تبتسم ، أو القول بأن الأمواج تهمس والرياح تصفر والجسم يئن من ثقل أحماله . أو القول بأن الحقول عطشى ، أو وصف باطن الثمار بالقلب . وهكذا يتضح أن الشعراء الأوائل قد نسبوا الى كل المعانى اللامادية والروحية أسماء منقولة عن أشياء محسوسة . فالمجاز الشعارى هو أساس اللغة ، وهذا يعنى خطأ اعتقاد أرسطو أن التصورات المنطقية هى التى تمثل هذا الأساس

وخطأ الاعتقاد الآخر بأن لغة البشر قد جاءت أولاً ثم جاء الشعر بعد ذلك .

ويعمد فيكو الى المغالاة بعض الشىء عندما يزعم أن روح الشعر من دلائل همجية العصر ، ولذلك عاد الشعر ثانية عندما عاد العصر الهمجى خلال انقرون الوسطى . فان المراجع تذكر لنا عودة الناس فى هذا العهد الى الايماءات الخرساء ، ونسيانهم الكتابة ، اذ كان الرهبان يوقعون الرسائل بعلامة الصليب .

وصحح فيكو اعتماداً على هذه الفكرة ، فكرة أخرى وهى الظن بأن الكلام والكتابة يرجعان الى أصل واحد . فالأصلاان مختلفان . ومن الواجب التفرقة بين حروف الكتابة التى جاءت فيما بعد نتيجة لاتفاق ، والتى قد تكون شبيهة بالقواعد التى وضعت مؤخراً للنحو ، وبين الكلمات المكتوبة التى ظهرت تلقائياً للتعبير عن انفعال ، والتى ربما كانت أسبق للظهور من الأصوات المسموعة . هذه الكلمات قريبة من الصور . وما زلنا نصادفها عند البدائيين وما زالت من أهم المراجع التى تساعدنا للكشف عن روح الانسان وحالته الفطرية الأولى

وفى نهاية كلامنا عن فكرة فيكو عن الشعر لابد من التنويه بفكرته عن هوميروس . اذ كانت هذه الفكرة أصيلة الى أبعد حد ، وكان لها أثر بعيد فى الدراسات الهوميرية التى جاءت بعد ذلك فى القرن التاسع عشر . ولا يقر فيكو وصف هوميروس بالفيلسوف ، كما جاء عند أرسطو . فهل يصح أن يوصف بالفيلسوف أى انسان يرضى بالوهيصة جويتر السفاح رمز الوحشية ، وهل تصح نسبة الروايات التى جاءت فى الياذة والأوديسا ، والتى

اليونان بالقرب من الشمال . أما أحداث الأوديسا فتدور في الغرب بالقرب من الجنوب . ولا وحدة في لغة الأشعار التي تنسب الى هوميروس . اذ اعتمدت هذه الأشعار على اللهجات اليونانية كافة . والرجوع الى روايتي هيرودوت وبلوتارك للتيقن من حياة هوميروس لن يجدى فتيلا . فنحن لن نستطيع التأكد اطلاقا من مكان ميلاده أو تاريخ موته ، لأن كل شعب من شعوب اليونان قد نسب هوميروس اليه .

كل هذه المبررات قد دفعت فيكو الى التشكك في هوميروس ، والى الظن أنه مجرد شخصية خرافية ، نسب اليونانيون اليها رواية أخبارهم ومفاخرهم . ولو أننا حاولنا تحليل أعمال هوميروس سيتبين لنا أنها تمثل أكثر من عصر بسبب ما فيها من اختلاف في العادات . ونسبة الاختلاف الظاهر في روح أشعار هوميروس الى اختلاف العهد الذي قام بتأليفها فيه « كالتقول مثلا بأنه قد ألف الاللياذة في شبابه وألف الأوديسا في شيخوخته » مماثل لتحليل النقاد المحدثين لأعمال معاصريهم !

وقصارى القول يرجح فيكو قيام جملة شعراء بتأليف الملاحم الهوميرية ، ويصفهم بأنهم شعراء أصلاء ، لأنهم كانوا بعيدين عن التفلسف والتأمل . فقد اعتمدوا على الخيال وحده . وما كان في وسع أى شاعر ظهر بعد ذلك في العصور التي تهذب خيالها بفعل التأمل والحكمة الاتيان ، بأى أشعار مماثلة في قوة خيالها وشاعريتها ووفرة مجازاتها واستعاراتها .



تركز كلامنا على ثلاث مسائل هامة في فلسفة فيكو وهي ومنهج التاريخي وطريقته في كتابة

تحدث فيها عن مبتذلات الالهة ، وتبادلهم السباب الذى لا يليق بالسوقة الى الآلهة . فلم يصرف هوميروس الاقزان أو ضبط النفس أو أية فضيلة من الفضائل التي جاءت في تعاليم الفلاسفة اليونانيين بعد ذلك . نعم ان أبطال هوميروس يمثلون في خلقهم عصر الشعر ، من حيث غرورهم ووحشيتهم وعنادهم وغطرستهم واندفاعهم وخضوعهم خضوعا كاملا للأهواء والانفعالات ، كما يتبين على سبيل المثال من صراع آشيل وهكتور ، عندما رفض مهادته وقال « ومتى تهادن الأسود والخسراف ومتى شاركت الذئاب الخراف في رغباتها » . وعندما قال كذلك بأنه سيجره في عربته ويجرى به حول سور طروادة ثلاثة أيام متتالية ثم يلقيه الى الكلاب كى تلتهم مابقى فيه من عظام . وكاد ينفذ وعيده لولا انقذية التي دفعها الأب التعس بريام .

هذا النوع من الرجال هو الذى مجده هوميروس في أشعاره وجعله أعلى للفضائل البطولية . ويلتمس لهوميروس المَعذرة لأنه قد عرف البطولة من مشاهداته للحيوانات المتوحشة ، ومن الطبيعة في صورتها الفطرية . ولكن من واجب الناس بعد تحضرهم النور من مثل هذه الفضائل المزعومة ، ومن واجبهم كذلك ألا ينسبوا لمثل هذا الشاعر الوحشى أية فلسفة أو حكمة .

ويندفع فيكو بتأثير كراهيته لهوميروس الى محاولة تشكيكنا في حقيقة وجود هذا الشاعر . فان التفكك الذى بدا في أحداث ملاحمه ، وتنوع مادته الشعرية الى حد غير معقول قد يدفعنا الى الاعتقاد بأن الاللياذة والأوديسا ليسا من خلق شاعر واحد . فمشاهد الاللياذة تدور في شرق

التاريخ ورأيه في الشعر . ولم يجيء ذكر آراء فيكو في جملة موضوعات أخرى كتاريخ روما وتاريخ القرون الوسطى الا بطريقة عابرة بحتة . ولعل مادفعني الى ذلك هو اعتقاد في التقدم الكبير الذي صادفته المادة التاريخية الخاصة ببعض عصور كعصر الرومان والقرون الوسطى ، بعد اكتشاف أدلة وفيرة خاصة بهذين العصرين . وبذلك تضاءلت الى حد كبير قيمة تاريخ هذين العهدين عند فيكو .

على أنني أعترف ببطلان أى نقد يعتمد على مقارنة رواد الفكر بمن جاءوا بعدهم ، لأن لكل رائد من رواد الفكر بالضرورة نصيبا فيما ينسب من فضل لللاحقين له ، الذين اقتفوا أثره واستفادوا بكشوفه . ومن هنا يصح القول بأن رانكه ونيبور ومومسن مدينون جميعا بالفضل العظيم لفيكو حتى في حالة عدم اعترافهم بذلك أو انكارهم له .

ولقد كان لفيكو في الحق أثر عظيم في مجالات متعددة كما تأثر به مفكرون عديدون من مختلفي النزعات ، شأن كل عظيم من جهابذة الفكر . فان أثره ملحوظ عند المثاليين الألمان ، وعند الوضعيين الفرنسيين ، بل وعند الماركسيين كذلك ، الذين اكتشفوا في نظرياته جملة دلائل تشير الى فكرة الصراع بين الطبقات .

ولا بد أن يكون رواد علم الأنثروبولوجي والاجتماع قد استفادوا كثيرا بالأسس التي وضعها فيكو في كتاب العلم الجديد ، على أن كتاب العلم الجديد قد تميز بأصالته من كل ناحية . ولعل الروايات الكثيرة التي تروى عن كيفية معرفة كبار المفكرين لهذا الكتاب تبين أن اكتشافهم له قد تميز بالأصالة هو الآخر . فلقد كان لاقبال

الناس - والمفكرين بوجه خاص - على السياحة في ايطاليا أثر كبير - فيما يبدو - على معرفة المفكرين بهذا الكتاب ، وان كان أكثر المفكرين الذين اقتنوا الكتاب في القرن الثامن عشر هم يبذلوا جهدا حقيقيا في الاطلاع عليه ، فجوته مثلا قد اقتنى الكتاب ، ولكنه لم يقرأه فيما يعتقد ، واكتفى باهدائه الى صديقه الفيلسوف جاكوبى الذي اكتشف فيه بعض ملامح من فلسفة كانط التي جاءت بعد فلسفة فيكو . والرأى بالمثل فيما يتعلق بموتسكيو ، الذي يقال انه اطلع على الكتاب بناء على نصيحة صديقه أنطونيو كوتتى . وما زالت النسخة التي اقتناها موجودة في مكتبة قلعة La Brede « لا بريد » ، وان كان لم يستفد بها على خير وجه . ولم تظهر أية صلة بين كتابة هرذر لفلسفة التاريخ وبين فيكو برغم اطلاعه على كتابه واشادته به . وسمع قولف عن الكتاب كذلك بعد أن كان قد انتهى من نشر نظريته الهوميرية ، وان كان من غير المستبعد ألا يكون قد اطلع على المقال الذي كتب عن فيكو في مجلة Gazette « الأدب الأوربي »

de Litterature de l'Europe سنة ١٧٦٥ .

ولكن الأمر يختلف بالنسبة للقرن التاسع عشر ، وبخاصة بعد نشر ترجمة فيبر للكتاب الى اللغة الألمانية سنة ١٨٢٢ . فلا يمكن انكار تأثر الأبحاث الفيلولوجية التي قام بها نيبور وموللر وبويك بكتاب العلم الجديد . والأمر بالمثل فيما يتعلق بكتب التاريخ الرومانى التي ألفها نيبور ومومسن . فلقد احتوت على عدة دلائل تثبت تأثرهما بفيكو ، الذي عرفه نيبور عن طريق فيلسوف القانون ساقينى ، والمفكر السويسرى أوريللى . وقد يعزى عدم اشادة الألمان أحيانا

بوجوده بعد. فأكثرها مازال يتبع مناهج الدراسات التقليدية ، ولا يعترف بوجود أية فلسفة حديثة حقة خارج فرنسا وانجلترا وألمانيا .

مقتطفات من الكتاب

قد آثرت اختيار بعض نصوص مكملة لخلاصة الكتاب ، لعلها تساعد على القاء ضوء على أى جوانب غامضة فى هذه الخلاصة .

الجغرافيا فى عصر الشعر

٧٤١ - .. اعتمادا على خاصة الطبيعة الانسانية التى جاءت ضمن المبادئ الأولى - ١٢٢ - ونصت على القول بأنه « عند وصف الأشياء غير المعروفة أو البعيدة (التى اما لم يتوفر أى علم صحيح بها ، أو رغبة فى شرحها للآخرين) ، قد لجأ الناس فى معرفة مثل هذه الأشياء الى التشابه بينها وبين ما هو معروف لهم ، أو ما هو قريب منهم » ولقد اعتمدت الجغرافيا فى عصر الشعر فى بدايتها على معان مقصورة على اليونان وحدها . وبعد ذلك وبعد أن نزح اليونانيون الى خارج حدودهم ، بدأ عالمهم يتسع شيئا فشيئا حتى بلغ الصورة التى أصبحت توصف لنا . ويتفق الجغرافيون القدامى على هذه الحقيقة ، وان كانوا لم ينتفعوا بها ، لأنهم أكدوا أن الشعوب القديمة بعد أن هاجرت الى بلدان غربية وبعيدة قد اختاروا الكل ماكتشفوا حديثا من بلدان وجبال وأنهار وتلال ومضايق وجزر وأكمام نفس الأسماء التى كانت عندهم فى وطنهم .

ومما يؤيد ذلك ، أن شرق اليونان كان يدعى بآسيا أو الهند ، وكان الجزء الغربى منها يدعى بأوروبا أو هسبريا ، وكان الشمال يسمى تراقيا

بفضل فيكو الى فكرة متسلطة دفعتهم الى عدم تقدير أى فكر ايطالى ظهر بعد القرن السابع عشر .

ويختلف الأمر كثيرا عند الفرنسيين ، وهو ما قد يرد الى بعض مؤثرات دينية أو سياسية . فلقد ترجم ميشيليه كتاب فيكو ترجمة غير كاملة قال عنها الايطاليون أنفسهم انها أفضل من الكتاب الأصلي . وحظى الكتاب بتقدير أهم أدباء وفلاسفة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر من أمثال جوفروا وشاتوبريان وكوزان . وأبدى كونت اعجابا فائقا بالكتاب ، وأرسل خطابا الى جون ستوارت ميل سنة ١٨١٤ ، الذى قرأ الكتاب وأشاد به فى كتابه الشهير System of Logic

وأهم الكتب التى بدأ فيها هذا التأثير واضحا هو كتاب المدينة القديمة لفوستيل دى كولانج . وتأخر الانجليز فى معرفة فيكو ، وربما لم يزد التشابه بين كتاب الدين الطبيعى عند هيوم وبين فيكو عن بعض آثار عابرة غير مقصورة . ولم يظهر الانجليز - فيما يعتقد - أى اهتمام حقيقى بالكتاب الا بعد نشر الشاعر كولديدج فى كتابه نظرية الحياة Theory of Life بعض مقتطفات من كتاب للفيلسوف الألماني جاكوبى ، جاء فيها ذكر فيكو جملة مرات . ثم نشرت بعد ذلك أهم دراسة عن فيكو صدرت خارج ايطاليا ، وهى الدراسة التى قام بها روبرت فلنت ضمن سلسلة فلسفية لأعلام الفلسفة .

ولم يعترف بشيكو فيلسوفا عالميا ، ولم يعرف على أفضل وجه الا بعد أن نشر كروتشه كتابه عن فلسفة فيكو فى أوائل القرن العشرين ، وان كانت أكثر مراجع تاريخ الفلسفة الهامة لم تشعر

أو اسقوثيا ، أما الجنوب فكان يدعى ليبيا أو موريتانيا . هذه الأسماء التي كانت تطلق على مناطق داخل عالم اليونان الصغير ، قد استعملت فيما بعد أسماء للعالم بوجه عام ، اعتمادا على الترابط الذى اكتشفه اليونانيون بينها . ولدينا برهان واضح آخر على ذلك ، فى أنواع الرياح الأساسية التى احتفظت بنفس الأسماء التى كانت لها بالتأكيد داخل اليونان ذاتها .

الكونيات فى عصر الشعر

٧١٠ - وكما أعتقد الشعراء اللاهوتيون فى وجود أصل أول للأشياء عبارة عن جواهر الهية كذلك قاموا بوضع كونيات تتوافق مع هذه الفزياء كما كانت هناك لامساواة داخل العائلة ذاتها ، أو فتصوروا العالم مؤلفا من الهة للسماء والهة للعالم السفلى (كان اللاتينيون يسمون هذين العالمين على التوالي dii inferi — dii superi

والهة يقعون فى موقع وسط بين الأرض والسماء (ولا بد أن يكون هؤلاء الالهة هم الذين أسماهم اللاتينيون فى البداية باسم medioxumi

٧١١ - وكان أول موضع لتأملاتهم فى العالم هو السماء . ولا بد أن تكون الأجرام السماوية هى أول mathēmata ، أو أشياء سامية ، أول موضوعات الهية ، وأوها جديرة بالتأمل . ولقد أسمى اللاتينيون تأمل مثل هذه الأشياء على هذا الوجه ، اعتمادا على مناطق السماء ، التى كان العرافون ينظرون اليها للكشف عن الغيب . وهذه المناطق كانت تسمى rempla coeli ويقابل هذا المعنى فى الشرق الزرادشتيين الذى اعتقد اللغوى « بوخارت » ان اسمهم يعنى أولئك الذين يتأملون النجوم .

٧١٢ - ولم يزد ارتفاع السماء الأولى فى نظر الشعراء عن قمم الجبال ، حيث أرغم المردة على التوقف عن انطلاقهم بتأثير أول العواصف الرعدية التى أطلقها عليهم جوبيتر . ان هذه السماء هى التى تحكم الأرض ، وهى التى أضفت خيرا عميما على البشر ، كما اشرنا فى اسهاب من قبل . ومن ثم لا بد ان يكون هؤلاء الشعراء قد تخيلوا السماء فى شكل قمم للجبال « ومن حدة انحدار هذه الجبال جاء الاسم coelum الذى أطلقه اللاتينيون على الـ burin ، (وهى أداة كانت تستخدم فى الحفر) وهذا الوهم يذكرنا بتوهم الأطفال قيام الجبال على أكتاف أعمدة (ونحن نصادف هذه الفكرة أيضا فى معتقدات العرب) واستمرت تسمية عمودين من هذه الأعمدة باسم أعمدة هرقل كما سنرى فيما بعد . والمعنى الأصلى لكلمة coelum لا بد أنه كان قاعدة أو دعامة . ولم تعرف الأعمدة المستديرة الا فيما بعد فى فن العمارة . ولا بد أنه يكون أوليمبوس قد وقف على أحد هذه السقوف (كما ذكر تيتس لاشيل عند هوميروس) فى الوليمة التى أقيمت فى جبل أطلس ، واضح كما قلنا عند الكلام عن المردة ان الأرجح هو حدوث حكاية الطيتان وحريهم مع الآلهة ، والتى تسلقوا فيها الجبال الشامخة حتى يستطيعوا الصعود الى السماء لسحق الآلهة ، بعد عصر هوميروس ، لأنه فى حديثه عن الآلهة كان يذكر على الدوام انهم مقيمون على قمة الأوليمبوس ، بحيث كان يكفى انهيار الأوليمبيوس وحده لاجداث سقطتهم كما أن هذه الخرافة غير مناسبة أيضا للأوديسا ففى هذه الملحمة لم يزد العالم السفلى ، الذى رأى فيه أوليس الأبطال بعد مفارقتهم للحياة،

وتحدث اليهم ، عن عمق حفرة عادية . ونظرا لاتصاف نظرة هوميروس عن العالم السفلى ، فى الأوديسا بمثل هذه الفكرة القاصرة ، لذا لا بد أن تكون فكرته عن السماء ساذجة بسيطة كذلك حتى تتناسب مع أفكاره الأخرى التى جاءت فى الإلياذة، ومن ثم لاتكون هذه الخرافة خاصة بهوميروس ، وهو ما وعدنا بأثباته قبل ذلك .

ثلاثة أنواع من الطبيعة

٩١٦ - أول نوع من الطبيعة كان الطبيعة الشاعرية . ونحن نصادفها عند أولئك الذين كانوا يتمتعون بقدرات خيالية فائقة أدت الى ضعف قدرتهم على التفكير والاستدلال : وتميزت هذه الطبيعة فضلا عن ذلك بوحشيتها وميلها الى القسوة. على أن هذه الطبيعة كانت تخشى الآلهة التى خلقتها بنفسها وتشعر بفزع كبير منها. وهو ما يعزى الى نفس الخطأ ، وهو اسرافها فى الخيال . ولم يبق من آثار هذا العهد الا خاصتين اثنتين مازالتا قائمتين . أولهما - أن الدين هو اقوى وسيلة لكبح جماح شراسة الناس ، والخاصة الثانية هى عدم ازدهار الأديان الا فى حالة اتصاف أصحاب السلطة الدينية بايمان باطنى عميق .

٩١٧ - وثانى نوع هو الطبيعة البطولية . ولقد اعتقد الأبطال أنفسهم أنهم من اصل الهى . فلما كان هؤلاء الأبطال يعتقدون ان الآلهة قد صنعت كل شيء ، لذا فانهم اعتقدوا أنهم أبناء جوبيتر.. ودفعهم تصورهم وجود جانب مميز فى طبيعتهم الى المطالبة بالسيادة على الجنس البشرى وكانوا يفخرون بهذا التميز على أولئك العوام الذين فروا من وحشيتهم واحتموا بهم . ولقد اعتبرهم الأشراف وحوشا لعدم اتسابهم الى أية آلهة .

٩١٨ - والنوع الثالث هو الطبيعة الانسانية وتسم بتعلقها وانصافها بالتواضع نتيجة لذلك . فهى تتصف بالوداعة والاعتدال والميل الى اتباع العقل ، وتعترف بوجود ضمير ومنطق وشعور بالواجب .

ثلاثة أنواع من الحكومات

٩٢٥ - اول هذه الأنواع هو الحكومة الالهية أو الشوقراطية ، كما أسماها اليونانيون . وفيما أعتقد الناس أن كل شيء خاضع للآلهة .

ان هذا هو أول عصر قرأنا عنه فى التاريخ .

٩٢٦ - والنوع الثانى هو الحكومات البطولية أو الأرستقراطية ، أو حكومة الأخيار فى عبارة أخرى ، وتعنى هنا أشد الطوائف بأسا . وكانت تدعى عند اليونانيين حكومات الهيرقليين ، أى أولئك الذين انحدروا من سلالة هرقل . وكانوا منتشرين فى جميع انحاء اليونان فى عهدها الأولى، واستمروا فى البقاء فى دولة اسبرطة . وكان لهم اسم آخر هو حكومات الـ Curetes ، الذين عاشوا فى عهد اليونانيين فى أنحاء شتى من ساتورنيا (ايطاليا القديمة) وكريت وآسيا. ومن هنا جاء اسم حكومات الـ Quirites عند الرومان ، وكانت تتألف من جماعات من الكهنة المسلحين . وفى الحكومات من هذا النوع : كانت السلطة مقصورة على الحكام أى الأبطال . ويرد ذلك الى تميزهم بنبل الأصل : وانحدرهم من أصل الهى . وبالنظر الى الاعتقاد الشائع بأن العوام من أصل وحشى ، لم يسمح لهم بغير الحياة والتخنع بجانب من الحرية الطبيعية .

٩٢٧ - وثالث نوع هو حكومات البشر، وفيها يسمح بالمساواة تحت ظل القانون ، اعتمادا على تمتع الناس جميعا بالعقل ، الذى يعد أهم ما يتميز به البشر . وهذا هو ما حدث فى المدن (الدول) الحرة التى تركزت فيها السلطة فى يد الأغلبية، التى كانت تبعا لذلك صاحبة الحق فى المحافظة

على العدالة فى دولتها . وكان هذا هو الحال أيضا فى الملكيات الدستورية ، التى كان الملوك يحافظون فيها على العدالة بين رعاياهم فى ظل قوانين محددة . وكان الملوك يتميزون بسلطات خاصة فى الدولة بفضل هيمنتهم على الجيش .
دكتور أحمد حمدي محمود